المحاضرة 3: العلاقة بين الاستقرار والعمارة والفن — كيف غيّر الاستقرار وظيفة الفن؟

1. الأهداف التعلّمية

بنهاية هذه المحاضرة، يكون الطالب قادرًا على:

- فهم مفهوم الاستقرار (Sedentarization) وتمييزه عن الترحال.
- تحليل العلاقة الجدلية بين الاستقرار والعمارة: كيف خلق الاستقرار عمارة جديدة؟ وكيف أعادت العمارة تشكيل الاستقرار؟
- تفسير التحول الوظيفي للفن من وظيفة سحرية-طقسية (في العصر الحجري القديم) إلى وظيفة دينية-اجتماعية-تذكارية (في النيوليتي).
- التمييز بين فن الكهوف (فن الترحال) وفن العمارة والفخار (فن الاستقرار).
- تطبيق منهجية تحليلية على نماذج معمارية وفنية نيوليتية.
- تقييم دور الاستقرار في ظهور المعبد والمقبرة والمدينة.

2. مفهوم الاستقرار: تعريف وتأطير

2.1. ما هو الاستقرار؟

الاستقرار (Sedentarization) هو التحول من الترحال إلى الإقامة الدائمة في مكان واحد. ليس مجرد توقف مؤقت، بل تغيير جذري في نمط الحياة والعلاقة بالأرض والزمان والمكان.

2.2. الفرق بين الترحال والاستقرار

المعيار	الترحال(Nomadism)	الاستقرار(Sedentarism)
المكان	متغير، مؤقت	ثابت، دائم
المسكن	خيمة، ملجأ مؤقت، كهف	بيت، قرية، مدينة
الاقتصاد	صيد، جمع، التقاط	زراعة، تدجين، تخزين
الملكية	جماعية، مؤقتة	فردية، دائمة (أرض، بيت)
الزمان	دوري، موسمي	خطي، تراكمي
الاجتماعي	جماعات صغيرة، مرنة	مجتمعات كبيرة، هرمية
الفن	فن متنقل، فن كهوف	فن ثابت، عمارة، فخار
المعتقدات	طوطمية، سحر الصيد	عبادة الخصب، الأسلاف، الأم الأرض

2.3. لماذا الاستقرار؟

الاستقرار لم يكن قرارًا واعيًا، بل نتيجة تراكمية لعدة عوامل:

- تغير المناخ: ارتفاع الحرارة في نهاية العصر الجليدي (نحو 10,000 ق.م) أدى إلى انتشار الحبوب البرية.
- الجمع المكثف: الإنسان بدأ يجمع الحبوب بكثافة، مما قلّل الحاجة إلى الترحال.
- التخزين: مخازن الحبوب جعلت الإنسان مرتبطًا بالمكان.
- التدجين: تربية الحيوان تتطلب استقرارًا (حظائر، مراعٍ قريبة.(
- الدين: المعابد (مثل غوبكلي تبه) جذبت الإنسان إلى الاستقرار حولها.

3. الاستقرار والعمارة: العلاقة الجدلية

3.1. كيف خلق الاستقرار عمارة جديدة؟

الاستقرار فرض على الإنسان بناء مساكن دائمة. لم يعد الكهف كافيًا، ولا الخيمة مؤقتة. ظهرت الحاجة إلى:

- بيوت دائمة: من الطين أو الحجر، تحمي من البرد والحرارة والأمطار.
- مخازن: لتخزين الحبوب والبذور والغذاء.
- حظائر: لتربية الحيوانات المدجّنة.
- أسوار: لحماية المستوطنة من الهجمات والحيوانات.
- معابد: لـ الطقوس الدينية والاجتماعية.

3.2. كيف أعادت العمارة تشكيل الاستقرار؟

العمارة لم تكن نتيجة سلبية للاستقرار، بل أعادت تشكيله:

- **البيت** خلق مفهوم الملكية (بيتي، أرضي).
- **المخزن** خلق مفهوم الفائض والتخطيط للمستقبل.
- **السور** خلق مفهوم الحدود (نحن vs هم).
- **المعبد** خلق مفهوم الجماعة والهوية الجماعية.
- **المقبرة** خلق مفهوم الأسلاف والذاكرة الجماعية.

3.3. من الكهف إلى القرية: تحول في مفهوم المكان

الكهف (الترحال)	القرية (الاستقرار)
مكان طبيعي، غير مشكّل	مكان مشكّل، مبني
مؤقت، موسمي	دائم، تراكمي
مقدس ككل (الرحم الكوني)	مقدس في أجزاء (المعبد، المقبرة)

جماعي، بلا ملكية	فردي، بملكية
لا هندسة، تضاريس طبيعية	هندسة، تخطيط، تصميم

4. التحول الوظيفي للفن: من السحر إلى الذاكرة

4.1. وظيفة الفن في الترحال (الباليوليتي)

في مجتمعات الصيد-الالتقاط، كان الفن:

- سحريًا: سحر الصيد، السيطرة على الحيوان عبر صورته.
- طقسيًا: الكهف فضاء طقسي، الرحم الكوني.
- متنقلًا: فن محمول (تماثيل فينوس، أدوات مزخرفة.(
- جماعيًا: لا توقيع، لا فردية.
- مرتبطًا بالحيوان: الحيوان هو الموضوع المهيمن.
- لا معماريًا: الكهف طبيعي، لا مبني.

4.2. وظيفة الفن في الاستقرار (النيوليتي)

في مجتمعات الزراعة، أصبح الفن:

- دينيًا: عبادة الخصب، الأم الأرض، الأسلاف.
- تذكاريًا: المقبرة، الجماجم، التماثيل.
- ثابتًا: العمارة، النصب الميغاليتية، الجداريات.
- جماعيًا لكن هرميًا: المعبد والقصر يعكسان التسلسل الاجتماعي.
- مرتبطًا بالإنسان: تماثيل الأم، الجماجم، التماثيل البشرية.
- معماريًا: البيت، المعبد، المقبرة، السور.

4.3. جدول مقارن: وظيفة الفن قبل وبعد الاستقرار

المعيار	فن الترحال (الباليوليتي)	فن الاستقرار (النيوليتي)
الوظيفة الأساسية	سحرية، طقسية	دينية، تذكارية، اجتماعية
المكان	كهف (طبيعي)	معبد، مقبرة، بيت (مبني)
الموضوع	حيوان (بيسون، خيل)	إنسان (أم، أسلاف)، رموز هندسية
التقنية	رسم، نقش على الجدار	نحت، فخار، عمارة، نصب
الحجم	جداريات ضخمة	تماثيل صغيرة، نصب ضخمة

الملكية	جماعية، لا توقيع	جماعية، لكن مرتبطة بمكان
الزمان	موسمي، طقسي	دائم، تراكمي
الرمزية	حيوانية، طوطمية	أنثوية، زراعية، فلكية

5. العمارة كفن: من النفعي إلى المقدس

5.1. البيت: أول عمل معماري

البيت هو أول عمل معماري في التاريخ. لم يكن مجرد مأوى، بل كان:

- تعبيرًا عن الاستقرار: "أنا هنا، أنتمي إلى هذا المكان."
- تعبيرًا عن الملكية: "هذا بيتي، هذه أرضي."
- تعبيرًا عن الأسرة: الأسرة النووية تحل تدريجيًا محل الأسرة الممتدة.
- تعبيرًا عن المعتقدات: دفن الأسلاف تحت الأرضيات (تشاتال هويوك) يجعل البيت مقبرة ومعبدًا أيضًا.

أنواع البيوت النيوليتية:

النوع	الموقع	الخصائص
بيوت مستديرة	أريحا، نطوف (فلسطين)	من الطين، بلا نوافذ، مدخل واحد
بيوت مستطيلة	جبيل(لبنان)، عين غزال (عمان)	من الحجر، أكثر تعقيدًا
بيوت متراصة	تشاتال هويوك تركيا	بلا شوارع، الدخول من السقف
بيوت حجرية	جبل مرة (السودان)، الأناضول	من الحجر، أساسات قوية

5.2. المعبد: من الكهف إلى البناء

المعبد هو التحول الأكبر في تاريخ العمارة. في الباليوليتي، كان الكهف هو المعبد. في النيوليتي، أصبح المعبد بناءً:

- غوبكلي تيبي (9600 ق.م): دوائر حجرية بأعمدة T-shaped ، منقوشة بحيوانات. ليس مسكنًا، بل معبدًا.
- أريحا: برج وسور، ربما طقسي.
- تشاتال هويوك: غرف بها رؤوس ثيران (bucrania) وجداريات، ربما معابد منزلية.

الدلالة: المعبد يعني أن الدين أصبح منظمًا، جماعيًا، مرتبطًا بمكان. الكاهن يظهر كـ شخصية اجتماعية. الطقوس تصبح منظمة ودورية.

5.3. المقبرة: عمارة الموت

المقبرة هي عمارة الموت. في النيوليتي، أصبح الموت حدثًا معماريًا:

- الدولمن: غرفة دفن من أحجار ضخمة.

- المقابر الجماعية: دفن متعدد، مما يعني ذاكرة جماعية.
- الجماجم: جماجم مفصولة، مغطاة بالجص، مع عيون من الأصداف (أريحا.(
- الدفن تحت الأرضيات: الأسلاف يبقون جزءًا من البيت.

الدلالة: المقبرة تعني أن الموت أصبح مركزيًا في الحياة الاجتماعية. الأسلاف أصبحوا جزءًا من الهوية. الذاكرة أصبحت جماعية ومعمارية.

5.4. السور: عمارة الحدود

السور هو عمارة الحدود. في النيوليتي، أصبح الحد ماديًا:

- ·أريحا: سور وبرج (8.5 م)، أقدم تحصين معروف.
- ·الدلالة: الجماعة أصبحت محدودة، محمية، متميزة عن الآخرين.
- ·النتيجة: الهوية الجماعية تتعزز، والصراع على الأرض يبدأ.

6. الفن الثابت: الفخار والجداريات والتماثيل

6.1. الفخار: فن الاستقرار

الفخار هو فن الاستقرار بامتياز، لم يكن ممكنًا في الترحال (لأنه ثقيل وقابل للكسر). أما في الاستقرار، أصبح:

- أداة تخزين: الحبوب، الماء، الزيت.
- أداة طهي: الطبخ، التقديم.
- أداة طقسية: أواني القرابين، الأواني الجنائزية.
- تعبير فني: زخارف هندسية، ألوان، أشكال.

الدلالة: الفخار يعني أن الإنسان أصبح مرتبطًا بالمكان، مخزّنًا، مخططًا للمستقبل. الفخار هو ذاكرة الاستقرار.

6.2. الجداريات: من الكهف إلى البيت

الجداريات انتقلت من الكهف إلى البيت والمعبد:

·تشاتال هويوك: جداريات تصور صيد، رقص، براكين.

·الدلالة: الجدارية لم تعد طقسية-سحرية، بل تذكارية-اجتماعية. البيت أصبح مكانًا لـ الذاكرة والهوية.

6.3. التماثيل: من فينوس إلى الأم الأرض

التماثيل تحولت من فينوس (الباليوليتي) إلى الأم الأرض (النيوليتي):

- فينوس: صغيرة، متنقلة، مرتبطة بالخصوبة.

- الأم الأرض: أكبر، ثابتة، مرتبطة بالزراعة.
- الدلالة: المرأة لم تعد رمزًا للخصوبة فقط، بل رمزًا للأرض والزراعة والاستقرار.

7. نظريات تفسير العلاقة بين الاستقرار والعمارة والفن

7.1. النظرية المادية(Materialist Theory)

- الفكرة: الاقتصاد هو المحرك. الزراعة أدت إلى الاستقرار، والاستقرار أدى إلى العمارة والفن.
- الرائد: غوردون تشايلد.
- النقد: غوبكلي تيبي يقلب الترتيب: المعبد (الفن) سبق الزراعة (الاقتصاد).

7.2. النظرية الرمزية(Symbolic Theory)

- الفكرة: الدين والطقوس هما المحرك. المعبد أدى إلى الاستقرار، والاستقرار أدى إلى الزراعة.
- الرائد: جاك كوفين، كلاوس شميدت.
- الدلائل: غوبكلي تبه — معبد بُني قبل الزراعة.

7.3. النظرية التكيفية(Adaptive Theory)

- الفكرة: الاستقرار والعمارة والفن هي استجابات تكيفية لـ ضغط بيئي. الإنسان لم يختر، بل تكيّف.
- الدلائل: التدريج في التحول، الاستمرارية بين الجمع والزراعة.

7.4. النظرية الاجتماعية(Social Theory)

·الفكرة: الاستقرار أدى إلى تعقيد اجتماعي، والتعقيد الاجتماعي أدى إلى عمارة وفن يعكسان التسلسل الهرمي.

·الدلائل: المعابد، المقابر، الأسوار تعكس سلطة وتنظيمًا.

8. نماذج تطبيقية: تحليل مواقع نيوليتية

8.1. أريحا: الاستقرار والعمارة المقدسة

·الاستقرار: قرى دائمة من 9000 ق.م.

·العمارة: بيوت مستديرة، برج (8.5 م)، سور.

·الفن: جماجم مغطاة بالجص، عيون من الأصداف.

·الوظيفة: عبادة الأسلاف، الذاكرة الجماعية.

·الدلالة: أريحا تُظهر العلاقة بين الاستقرار والمعماري والمقدس.

8.2. تشاتال هويوك: الاستقرار والفن المنزلي

·الاستقرار: مدينة من 7500 ق.م.

·العمارة: بيوت متراصة، الدخول من السقف.

·الفن: جداريات، تماثيل الأم، رؤوس ثيران.

·الوظيفة: البيت هو معبد ومقبرة.

·الدلالة: الفن أصبح جزءًا من الحياة اليومية، مرتبطًا بالبيت.

8.3. غوبكلي تيبي: الاستقرار والمعبد

·الاستقرار: معبد من 9600 ق.م.

·العمارة: دوائر حجرية، أعمدة.T-shaped

·الفن: نقوش حيوانية.

·الوظيفة: طقسية، جماعية.

·الدلالة: المعبد سبق الزراعة، مما يعني أن الدين كان محركًا للاستقرار.

9.المصطلحات الأساسية

المصطلح	التعريف
الاستقرار(Sedentarization)	فن بناء المساكن والمعابد والمقابر
العمارة (Architecture)	التحول من الترحال إلى الإقامة الدائمة
الميغاليت (Megalith)	أحجار ضخمة استُخدمت في بناء النصب
الدولمن (Dolmen)	غرفة دفن من أحجار ضخمة
المنير(Menhir)	حجر عمودي منتصب
الكروملیك (Cromlech)	دائرة من الأحجار العمودية
bucrania	رؤوس ثيران مزخرفة، رمز الخصب
عبادة الأسلاف (Ancestor Worship)	تقديس الأجداد، ظهر في النيوليتي
الأم الأرض (Mother Goddess)	إلهة الخصب والزراعة
غوبكلي تيبي (Göbekli Tepe)	معبد نيوليتي في تركيا، 9600 ق.م

10.نشاط تطبيقي: تحليل العلاقة بين الاستقرار والعمارة والفن

الخطوات:

1. اختر موقعًا نيوليتيًا (أريحا، تشاتال هويوك، غوبكلي تيبي)
2. اجمع المعلومات: الاستقرار، العمارة، الفن، المعتقدات.
3. حلّل:

a. كيف يعكس الموقع الاستقرار؟
b. ما العلاقة بين العمارة والفن؟
c. كيف غيّر الاستقرار وظيفة الفن؟
4. قارن بين موقعين من حيث العلاقة بين الاستقرار والعمارة والفن.
5. استنتج: ما دور الاستقرار في ظهور العمارة والفن الثابت؟

11. أسئلة للنقاش والتقويم

1. سؤال تحليلي: كيف غيّر الاستقرار وظيفة الفن؟ اذكر ثلاثة تغييرات جوهرية.
2. سؤال نقدي: هل الاستقرار هو سبب العمارة، أم العمارة هي سبب الاستقرار؟ ناقش.
3. سؤال تطبيقي: حلّل العلاقة بين البيت والمقبرة في تشاتال هويوك. كيف يعكسان الاستقرار؟
4. سؤال مقارن: قارن بين فن الكهوف وفن النيوليتي من حيث الوظيفة والمكان والموضوع.
5. سؤال تأملي: كيف يساعدنا فهم العلاقة بين الاستقرار والعمارة والفن على فهم الحضارات القديمة (مصر، بلاد الرافدين)؟

12. مراجع مُقترحة

- غومبريتش، قصة الفن — الفصل الأول.
- خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ.
- شمس الدين فارس وزملاؤه، تاريخ الفن القديم.

- Childe, V.G., Man Makes Himself, Watts, 1936.
- Hodder, I., The Leopard's Tale: Revealing the Mysteries of Çatalhöyük, Thames & Hudson, 2006.
- Schmidt, K., Göbekli Tepe: A Stone Age Sanctuary in South-Eastern Anatolia, Ex Oriente, 2012.
- Cauvin, J., The Birth of the Gods and the Origins of Agriculture, Cambridge University Press, 2000.
- Mithen, S., After the Ice: A Global Human History, Harvard University Press, 2004.

هذه المحاضرة تُظهر أن الاستقرار لم يكن حدثًا اقتصاديًا فحسب، بل كان تحولًا حضاريًا شاملًا غيّر علاقة الإنسان بالمكان، وخلق عمارة جديدة، وأعاد تعريف وظيفة الفن. الطالب الذي يستوعب هذه العلاقة الجدلية بين

الاستقرار والعمارة والفن يكون قد فهم المفتاح الذي يفسر ظهور الحضارات وفنونها في مصر وبلاد الرافدين واليونان وروما.